دور التراث الثقافي الديني في تحديد وحفظ هوية المجتمع الجزائري _الزوايا أنموذجا_

The role of religious cultural heritage in the identification and preservation of Algerian society, the ZAWIYA as an example

زرق العين نوال[1]

Zerglaine nawal[1]

[1] جامعة الجزائر 02، معهد الأثار (الجزائر)، nawal.zerglaine@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام:2023/11/22 تاريخ القبول: 2024/01/08 تاريخ النشر: 2024/01/13

ملخص:

كان للتراث الثقافي دور في تحديد هوية وسلوكيات الشعوب عبر مختلف الحضارات، خاصة التراث الثقافي الديني الذي ساهم بشكل كبير في الحفاظ على الهوية الثقافية، وذلك لما له من تأثير على سلوكيات وتوجهات الأفراد ، فقد كان للمؤسسات الدينية ومنها الزوايا على وجه الخصوص الفضل في الحفاظ على ذاكرة وتاريخ المجتمع الجزائري.

كلمات مفتاحية: ، التراث الثقافي، الهوية، التراث الثقافي الديني، الزوايا.

Abstract:

The cultural heritage has played a role in defining the identity and behaviours of peoples through different civilizations In particular, religious cultural heritage, which has contributed significantly to the preservation of cultural identity, because of its influence on the behaviours and attitudes of individuals. Religious institutions, including the ZAWIYA in particular, have been credited with preserving Algerian society's memory and history.

In this research, we aim to highlight the role of The ZAWIYA in determining the constants and identity of Algerian society.

Keywords cultural heritage; identity; religious cultural heritage; the Zawiya .

المؤلف المرسل: زرق العين نوال، الإيميل: nawal.zerglaine@univ-alger2.dz

مقدمة:

يعد الإنسان كائن اجتماعي له القدرة على إنتاج الهوية الثقافة من خلال سلوكياته وهي خاصية تميزه عن باقي المخلوقات، فالعادات والتقاليد والأفكار التي يشارك فيها أفراد المجتمع والتجارب التي يمر بها الإنسان تستقر في أعماقه، ويستخدمها المجتمع جيلا بعد جيل ويحولها إلى القيم وتراث جماعي، وعليه فالثقافة لا توجد إلا بوجود المجتمع من خلال البيئة المحيطة به التي تكون من صنعه وتمثل الحصيلة الإجمالية لمعارفه ومعتقداته وفنونه وأخلاقياته وعاداته وتقاليده وقيمه ومختلف العادات والتقاليد الأخرى التي يكتسبها في عرف المجتمع، فيمكن القول أن الثقافة هي طريقة الحياة لمجموعة من البشر التي تميزهم عن غيرهم، لذلك نجد التنوع الثقافي والحضاري الذي يتمثل في التراكمات المتكونة حسب عمق وتاريخ وعراقة الأمم والمخلفة للعديد من الشواهد الحضرية و الأثرية بنوعيها المادي و اللامادي، فالموروث الثقافي يتميز بخاصية التنوع في كافة المجالات فنجد التراث الثقافي الديني الذي كان له دور فعال في البناء الاجتماعي لأفراد المجتمع الجزائري، من خلال التحكم في سلوكياتهم والحفاظ على هويتهم الثقافية والانتماء الوطني، وذلك بفضل التربية الروحية وتعليم اللغة العربية ومختلف العلوم المتعلقة بها.

فنحن اليوم في أمس الحاجة الى التعريف بالتراث الثقافي الديني الذي ساهم بشكل كبير في بناء هوية المجتمع وحدد أسسه ومبادئه، ورسخ الروح الوطنية والانسانية لديهم.

وعليه نطرح الاشكال التالي: كيف ساهم التراث الثقافي الديني في تحديد هوية المجتمع الجزائري؟ وكيف كان دور الزوايا في الحفاظ على قيم ومبادئ المجتمع الجزائري؟

1. مفهوم الهوية الثقافية:

1.1.تعريف الثقافة: إن مفهوم الثقافة حسب معاجم اللغة العربية وخاصة ما جاء به في لسان العرب، يجد أنها اشتقت من أصل لغوي ثقف، وتعني صارحا، و ثقف الإنسان يعني أدبه وهذبه وعلمه، وقد عرفها تايلور، أنها الكل المركب الذي يشتمل على المعارف والمعتقدات والفن والقانون والأخلاق والتقاليد والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع معين(عبد الغني عماد، 2006،ص317).

2.1. تعريف الهوية: إن ما يميز كل مجتمع عن غيره هو تلك المقومات التي يقوم عنها كالمسالة اللغوية والدينية والتاريخ والموقع المتواجد عليه والمصير المشترك وهذه المقومات هي أساس وجوده وتماسكه ووحدته ونضاله، فاللغة هي أساس التواصل بين الأفراد رغم الاختلاف في اللهجات والدين هو الرابط الروحي بين الأفراد والمؤسسات والمنظم للعلاقات، والتاريخ هو الامتداد الزمني والحضاري والعرقي للأفراد، والموقع هو الرقعة الجغرافية التي تحدد تواجده وضرورة الدفاع عنها، والمصير المشترك هو ما ينتظره من تحديات تعرقل مسيرته وتقف دون تحقيق أهدافه. إن وعي الأفراد بهذه المحددات والاعتزاز بها والدفاع عنها هو الضمان الحقيقي لبقائها وقدرتها على مواجهة الحملات الاستئصالية ، والتغريبية، وكل ما يهدد كيانها ، والمجتمع الجزائري كبقية المجتمعات له مقومات وجوده رغم ما تعرض له من تدمير وتعنيف ثقافي عمل على مسح هويته التاريخية والدينية عن طريق محاربة عوامل وحدته والتضييق على وظائف مؤسساته الاجتماعية والدينية(حورية علي شريف، 2021،ص347).

3.1. تعريف الهوية الثقافية: تعد الكيان التاريخي المتعلق بالتراث والمعاصرة والأصالة والحضارة، وتعرف على أنها ما يمنح الناس مشاعر الانتماء والأمن والاندماج بالجماعة حيث تزودهم بالمعايير المشتركة، والتي تمكنهم من التواصل والتفاعل وتزودهم بالقيم والطموحات المشتركة(أسامة بأحمد ،2018، ص121).

2. دور الزوايا في الحفاظ على الهوية الثقافية:

1.2. تعريف الزوايا:

1.1.2. لغة: الزوايا جمع زاوية من زوى يزوي بمعنى جمع، وفي الحديث: زُويَت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها، والزاوية من البيت ركنه، فاعلة من زوى يزوي إذا جمع، لأنها جمعت قطرا منه(مرتضي الزبيدي،2001،ص227). فالزاوية هي كلمة مشتقة من فعل انزوى بمعنى ابتعد وانعزل وسميت كذلك لأن اللذين فكروا في بنائها أول مرة من المتصوفة والمرابطين اختاروا الانزواء بمكانها والابتعاد عن صخب العمران وضجيجه طلبا للهدوء الذي يساعد على التأمل والرياضة الروحية(صلاح مؤيد العقبي ،2002، ص30).

2.1.2. اصطلاحا: لقد اعتبر بعض المهتمين بالجانب الثقافي والديني في الجزائر على أن الزاوية هي "مجموعة من الأبنية ذات الطابع المعماري الإسلامي... شيدت قبابها على أضرحة الأولياء الصالحين أو بنيت تخليدا لذكراهم، عن تسمية الزاوية فهناك من يرى أنها جاءت إما لانزوائها عن المدينة باعتبار أن العديد من الزوايا كانت في مناطق قروية، أو لأن وجودها كان دوما في أطراف المدينة أو ركن منزوي بها، وهي تشبه المدرسة أو الدير(أحمد مريوش،2007، ص149).

وقد انحصر مفهومها في العصر الحديث في أماكن التعبد والخلوة، والتي يقصدون بها مؤسسة تعليمية قائمة بذاتها تستقبل الطلبة لتعلمهم العلوم العربية بداية من مبادئ اللغة العربية الأولى (تعليم الحروف والأصوات) إلى تحفيظ القرآن الكريم وتدريس العلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير، والعلوم اللغوية من نحو وبلاغة وصرف، إضافة إلى ذلك توفير للطلاب الوافدين الإقامة والإعاشة مجانا، كما يجد الزوار وعابر السبيل الإقامة المريحة وراحة البال فيها(صلاح مؤيد العقبي، ص303) ، وهذا المفهوم لاحظه حتى الباحثين ،الغرب، فمثلا دوماس الذي ذكر تعريفا للزاوية في كتابه: منطقة القبائل عام 1847 قال : " إن الزاوية هي على الجملة مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة تحتوي عادة على مصلى وغرفة لتلاوة القرآن ومدرسة لتحفيظ القرآن وتلقين علوم الدين وقواعد اللغة العربية، كما تضم غرفة ومراقد لا إيواء الطلبة وضيوف الزاوية والحجاج والمسافرين ويلحق بها أيضا ضريح الولي الصالح ويكون هذا الولي في الغالب هو مؤسس الزاوية "(عبد العزيز الشهبي،2007،ص13)، وتسمى في المشرق العربي خانقاة وهي لفظة أعجمية، وقيل عن تعريفها في المغرب أنها مدرسة دينية أو دار مجانية، وهي بهاذين الوصفين تشبه كثيرا الدير في العصور الوسطى(مُحَمَّد حجي ، 1969).

3.الوظيفة التربوية والتعليمية للزوايا:

معلوم أن الزاوية هي مؤسسة تربوية تعليمية تقوم بذاتها وعلى ذاتها وبمساعدات وتبرعات المحسنين في دعم مسيرتها العلمية والتعليمية، وهي تضم تلاميذ وطلاب وشيوخ للتدريس، ولها برامج ومناهج تعليمية خاصة تعتمدها في تكوين الطلبة، وتعد التربية الدينية والتوجه القرآني من أولى اهتمامات الزوايا في العملية

التربوية، وذلك بغرض عدل السلوك، وتحقيق استقرار نفوس المراهقين وتهذيبهم بالقيم القرآنية، الأمر الذي سينعكس على تصرفهم اليومي. كما أنه في المجال التعليمي أيضا نجد أن التربية المدنية أخذت قسطا وافرا من التكوين في الزوايا، فالطالب يسير على نظام داخل الزاوية مضبوط جدا بجملة من القوانين كاحترام الوقت والمواعيد، وأداء الفرائض وتقديم الخدمات داخل الزاوية وغرس قيم العمل التطوعي وغيرها(أحمد مريوش، ص173)

4. الزوايا والهوية:

تعتبر الزوايا مكان مفضل للمحافظة على الهوية، والزوايا مؤسسة شاملة فهي مسجد للعبادة ومدرسة للتعليم وملجئ للهاربين ومأوى للغرباء(مُحَّد علي دبوز،2007،ص40) ، فكل ما يقدم من دروس باللغة العربية التي هي لغة القرآن العظيم بكل ما تحمله من أحكام صرف ونحو وصيغ مبالغة تؤكد جدارتها وقوتها في التعبير وطلاقة اللسان، ورغم السياسة الاستعمارية الهادفة إلى فرنسة اللسان الجزائري على امتداد أكثر من قرن إلا أن اللغة العربية بقت صامدة وشامخة صمود الشعب الجزائري، ونفس الشيء ينطبق على تمسك أبناء المجتمع بالدين الإسلامي، رغم إغراءات التبشير والدعوة إلى التنصير، إلا أن قوة تمكن هذا الدين في قلوب أفراد الشعب لا يمكن مهما كان الأمر أن يغير في العقيدة من شيء، وكان للزوايا الدور الأعظم في ترسيخ الشخصية العربية والبربرية المصبوغة والمتمازجة مع الدين الإسلامي وقد يلاحظ ذلك من خلال الحياة الاجتماعية داخل الزوايا من الأكل والشرب واللباس وقيم الاحترام وممارسة مختلف العبادات والمداومة عليها، ويمكن القول أن الزوايا تعبر بحق عن ذاكرة الشعب الجزائري وتاريخه المتجذر ومدى تميزه عن غيره من الشعوب(حورية علي شريف، ص349).

5. المجتمع الجزائري والزوايا:

تعتبر الجزائر إحدى البلدان العربية التي تعرف انتشارا واسعا للزوايا والمدارس الدينية الصوفية نتيجة العلاقة الوطيدة بين أفراد المجتمع والمؤسسات الدينية وهي علاقة تاريخية وروحية تأخذ قداستها من وظيفتها وتأثيرها القوي على نفسية الأفراد وتوجيه السلوك وضبط الاتجاه فهي تمثل مرجعا للهوية والانتماء والدليل على ذلك انتشارا الزوايا على كامل التراب الوطني وبإعداد كبيرة وأصبحت بذلك دعوة إلى التفاخر

والاعتزاز بها وما يلاحظ على أفراد المجتمع الجزائري التسابق نحوى تقديم يد المساعدة للزوايا خاصة في الاحتفالات الدينية ولقد عرف المجتمع الجزائري تنوع كبير في الطرق الصوفية والزوايا كالزاوية السنوسية والزاوية القادرية نسبة إلى عبد القادر الجيلاني والزاوية الرحمانية نسبة إلى مُحَمَّد بن عبد الرحمان الأزهري والزاوية الشاذلية، وهذا التنوع كان دليل قوة الثقافة الدينية السائدة في تلك الفترة خاصة مع سقوط الأندلس وهجرة الكثير من العلماء والفقهاء نحو المغرب العربي وإنشاء محاضر لنشر العلم والفقه وأصبح لكل منهم إتباعه ، ومن أهم مميزات الجزائر في العهد العثماني انتشار الطرق الصوفية وكثرت زواياها المخصصة لهذه الطرق والمذاهب الصوفية في المدن والأرياف والجبال والصحاري وفي هذه الفترة ذكر سعد الله قائمة طويلة للزوايا منها الزاوية الثعالبية والزاوية الجيلالية، وزاوية مُحَمَّد الشريف وغيرها من الزوايا في الجزائر العاصمة(أبو القاسم سعد الله ،1998،ص272).

6. الزوايا والحفاظ على القيم الاجتماعية: لزوايا والحفاظ القيم الاجتماعية يقول الدكتور توفيق المداني عن دور الزوايا في الحفاظ على ذاكرة المجتمع" أنها استطاعت أن تحفظ الإسلام بهذه البلاد ولولها لم نجد اثر اللغة العربية ولا لعلوم الدين" وإذا نظرنا إلى المدة الطويلة للاحتلال ومختلف ممارسته القمعية والتنصيرية وسياسة الاندماج الثقافي، إلا أن ذلك لم يجدي نفعا أمام صمود وشموخ شخصية هذا الشعب الأبي المتأصل بوطنه ولغته ودينه وما تمثله هذه الثوابت من قيم وخصائص تميزه عن ثقافة غيره، وهذا التميز هو نتجه حتمية للبعد الحضاري والتاريخي والتمسك الطوعي بالعقيدة الإسلامية وما تحمله من صفات السمو والرقي الإنسانية. وهذا عكس مايعتقده الجنرال بيجو أن حقيقة الاحتلال تعتبر أرض الجزائر أرض خضبه لزرع المسيحية(جباري المسعود،2002ص،102).

1.6.الزوايا والقيم المحلية: المقصـود بالقيم المحلية هي تلك التي تميز كل مجتمع عن غيره في نظرتها أو تعاملها مع الكون والبشر والحياة والعلاقة بين الأفراد والمؤسسات رغم أنها لاشعورية إلا أنها تظهر في المعاملات والسلوكيات ونتائجها فالفرد الغربي مثلا يمجد المصلحة الخاصة ويسعى من اجلها ولو بطرق غير شرعية فالغاية تبرر الوسيلة عكس الفرد المسلم، فالوسيلة والغاية شرعيتان ولا تمس بشرف وكرامة غيره ونفس الشيء ينطبق على مفاهيم الحق والواجب الحلال والحرام وبذلك إن منظومة القيم التي تميز الغرب

هي منظومة فاقدة للبعد الروحي ولا تحترم الذات الإنسانية عكس القيم الإسلامية المتشبعة بالروح البشرية وفطرتها والعدالة الإلهية والأخلاق الفاضلة التي تصون العرض والمال، والزوايا تغرس في نفوس مورديها الأصالة وحب التشبث بالانتماء إلى الدين والوطن والدفاع عنهما ولن يتأتى ذلك إلا عن طريق تعلم تعاليم الإسلام ومبادئه السمحاء(حورية علي شريف، ص350).

2.6. الزوايا والقيم الدخيلة: لقد تصدى شيوخ الزوايا إلى الهجمة الثقافية التي صاحبت الاحتلال وأعلنت حربا ثقافية عليها خاصة في المناطق الريفية التي تمثل معقلا لها وعملت على دحر الحملات التبشيرية وذلك عن طريق زيادة درجة الوعي لدى أفراد المجتمع الجزائري بان الجهاد يبدأ من تمسكنا ووحدتنا والمحافظة على مقوماتنا، فأعلنت الزوايا مقاطعتها للمدارس الفرنسية ولو أنها عربية التعليم، لكن مضامينها وأهدافها تمجد الحضارة الفرنسية وتطيح بالتاريخ الجزائري وتربطه بهمجية البربر والعرب وسيطرة الدين الخرافي على العقل والدعوة إلى العلمانية، وان الفرد الجزائري متخلف عن الحضارة وهو بحاجة إلى تأهيل وهي بذلك تنتج عقول هجينة فاقدة للهوية، إنها ثقافة الاستئصال وغسل العقول، ولقد استجابت الأسر الجزائرية لنداء شيوخ الزوايا ورفضت إدخال أبنائها إلى تلك المدارس وفضلت إلحاقهم بمختلف الثورات الشعبية للدفاع عن هوية الوطن(حورية علي شريف، ص351).

الخاتمة:

كان للزوايا دور فعال في المحافظة على الثوابت والقيم والهوية الجماعية للمجتمع الجزائري، فالحفاظ على التراث الثقافي الديني هو الحفاظ على الهوية، وعليه وجب تسخير كل المستلزمات لحمايته والمحافظة عليه، خاصة في العصر الحالي وما يشهده المجتمع من الانفتاح على العالم ، فلا مجال فيه للانغلاق والعزلة، والحل الوحيد للحفاظ على هويتنا وتراثنا هو تربية النشء تربية صحيحة وسليمة مبنية على تراث الأجداد وما خلفوه من قيم وعادات وتقاليد.

5. قائمة المراجع:

المؤلفات:

_ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، دار الغرب الاسلامي، 1998.

_ صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر وتاريخها ونشاطاتها، دار البراق لبنان، 2002.

_ أحمد مريوش، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث، الجزائر، 2007.

_ عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة-مفاهيم والاشكالية من الحداثة الى العولمة- دار النشر بيروت، طط1 سنة 2006.

_ مرتضي الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس تحقيق عبد الصبور شاهين، ومراجعة مُحَّد حماسة عبد اللطيف، منشورات التراث العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب، الكويت، ط1، 2001، ج28.

_ مُحَّد حجي، الزاوية الدلالية ودورها الديني والعلمي والسياسي، المكتبة الوطنية المغربية، 1969.

_ مُحَّد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.

الأطروحات:

_ جباري المسعود، الفكر السياسي عند الشيخ عبد الحميد ابن باديس، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجيستار في العلوم الانسانية وأصول الدين، قسم العلوم الانسانية، جامعة الجزائر، 2002.

المقالات:

- أسامة بأحمد، قراءة سوسيولوجية للموروث الثقافي بين ثنائية التغير الاجتماعي والتغير الثقافي ودوره في الحفاظ على الهوية الثقافية، مجلة التنمية وادارة الموارد البشرية-بحوث ودراسات- جامعة البليدة، 2018ن.

_ حورية علي شريف، مرزقلال موسى، دور الزوايا في الحفاظ على الهوية الجماعية للمجتمع الجزائري خلال الحقبة الاستعمارية، مجلة مفاهيم للدراسات الفلسفية والانسانية المعمقة، جامعة زيان عاشور الجلفة، 2021.

_ عبد العزيز الشهبي، الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، الغرب وهران، 2007.